

د. حسين مؤنس

عودة العربي إلى مكانه في التاريخ

obeikandi.com



obeikandi.com



ليلة السادس من أكتوبر ١٩٧٣ نامت مصر وأهلها على الحال الحزينة القلقة التي لم تعرف غيرها منذ يونيو ١٩٦٧ : العدو رايض على جزء كبير من أرض الوطن ، وقابض بيد من حديد على عنق قناة السويس ، ومدافعه موجهة إلى غربي القناة ، وجنوده متحصنون في خط دفاعي قيل يومها إنه لا توجد على سطح الأرض قوة تستطيع أن تنال منه ، وقادة العدو هناك في تل أبيب والقدس يخططون ويدبرون على أن قوة مصر - وقوة العرب تبعاً لذلك - قد تحطمت إلى الأبد ، وأن الوطن العربي أصبح بين يديه وكأنه كعكة لينة يقتطع منها ما يريد وقتها يريد . .

ومن وراء العدو الإسرائيلي وقفت أمريكا بقوتها العسكرية الهائلة ، ترسل إليه الشحنة بعد الشحنة من أسلحة رهيبة لم يسبق استخدامها حتى في فيتنام ، بما في ذلك القنبلة التليفزيونية وصاروخ T.O.W المضاد للدبابات وصواريخ وول - آى ومافريك وستاندارد وشرايك ، وما إليها مما كان الأمريكيان يظنون أن أحداً لا يستطيع أن يقف أمامها . ولهذا اعتبر القوم في إسرائيل أنفسهم القوة الوحيدة الجديرة بالذكر في الشرق الأوسط ، واستقر في نفوسهم أن ذلك يجعلهم سادة المنطقة الفعلين ، وأن مصيرها في أيديهم ، ولا يمكن أن يجرى فيها شيء إلا بإذنه وما يوافق

هواهم . بل لقد قال الكاتب الإسرائيلي ولتر لاكير (بعد حرب أكتوبر) :
 « كانت إسرائيل تعتقد أنها القوة العسكرية الوحيدة فيما بين فرنسا والهند » .

وكان العالم كله قد سلم بهذه « الحقيقة » ، واعتبر قضية الشرق الأوسط قضية
 منتهية ، برغم الضجيج الكثير الذى يثيره العرب ، فهو ضجيج شعب مغلوب لا يريد
 أن يواجه الحقيقة أو يحاول تغيير ما حدث ، وسيخفت يوماً بعد يوم هذا الضجيج ،
 ثم يقبل العرب رافعين راية الاستسلام ، فيوقعون الشروط التى عليها المنتصر . وفى هذا
 المعنى قال موشى ديان - وكان إذ ذك فى أوج مجده الزائف بعد حرب يونيو ١٩٦٧ -
 « إنها الحرب التى أنهت كل الحروب ، ولم يبق أمام العرب إلا طلب المقاتلة
 لتقديم فروض الطاعة ، ولا سيما أنهم يعرفون رقم التليفون والعنوان : ٢١ شارع
 كابلان ، القدس ! » . وهذه واحدة من كلماته الساخرة اللاذعة التى كان مولعاً
 بإلقائها شمالاً ويمناً ، وكان يحسب نفسه إذ ذاك فى طليعة القواد العظام الذين
 لن ينسأهم التاريخ . .

حتى هيئة الأمم ، وهى الهيئة التى خلقت لتحرس السلام على الأرض وتحول
 دون الاستيلاء على الأراضى وضمها بالقوة ، سلم معظم أعضاء مجلس الأمن بأن
 الصورة التى صنعتها إسرائيل (وأمريكا) للمنطقة بعد حرب يونيو صورة نهائية
 وغير قابلة للتغيير . وصرح أحد مندوبى الدول الكبرى قائلاً : غريب أمر هؤلاء
 العرب ! لقد انهزموا هزيمة قاسمة ، وأمثال هذه الهزائم لا بد أن يعقبها الاستسلام ،
 فإذا ينتظرون ؟ وفى أى وهم يهيمون ؟ . . ألم يقرءوا شيئاً من التاريخ ليتعلموا
 منه شيئاً ؟ . .

وهذه قالة مريرة ، ولكنها تبدو طبيعية لمن لا يعرف العرب . ولقد صدق هذا
 الرجل إذ قال إن أمر هؤلاء العرب غريب ، لأنه فى الحقيقة لا يعرف العرب ،
 ولم يحاول أن يعرفهم ، لقد نشأ بينهم ولكنه لم يعيش معهم ، لأنه كان صهيونياً
 قحاً ، والصهيونية عقيدة يهودية سياسية تزعم أن اليهودية قومية قائمة بذاتها ، ومادامت
 قومية فلا بد أن يكون لها وطن ودولة ، وهذه الدولة لا تكون إلا فى فلسطين قلب
 بلاد العروبة ، ولا بد أن تتوسع فى بلاد العرب حتى تزيلهم أو تجعلهم فى مراتب

الأرقاء والمستضعفين في الأرض ، فهي إذن حركة لا عربية : قامت للقضاء على العرب والاستيلاء على ديارهم ، ولباب العقيدة الصهيونية هي كراهة العرب واعتبارهم جنساً يملك أراضي وثروات لا يستحقها ولا بد لليهود من انتزاعها من أيديهم وتملكها .

تحت هذا الحجاب الصهيوني السميك نشأ موسى ديان ودافيد بن جوربون وموسى شرتوك ومناحم بيجين وإيجال آلون وجولدا مائير ودافيد أليعازر وشمعون بيريث ، ومن إليهم ممن رصدوا حياتهم لتنفيذ مشروع الدولة الصهيونية الخادع ، الذي صاغه من مادة الحقد على العرب صحتي فيناوي محموم عاش في أسر هذا الوهم البغيض هو تيودور هرتسيل الذي قضى أيامه يجرى لاهثاً بين فيينا ولندن وباريس وبرلين والآستانة ، ومات بهذا الوهم آخر الأمر كما يموت الإنسان بداء عضال .

وعندما تفكر في الموضوع ، وفي الظروف التي عمل فيها تيودور هرتسيل وترى فيها تلاميذه الذين ذكرنا بعضهم ، نجد أن هناك ما يفسر لنا لماذا نشأت في ذهن هرتسيل وماكس نور داو فكرة الاستيلاء على فلسطين وإنشاء دولة يهودية فيها . فخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وهو القرن الذي نشأ فيه هرتسيل وعمل ، كان الوجه الحقيقي للعرب - أصحاب فلسطين - قد اختفى وراء ركाम الحوادث المتوالية التي تعاونت على إخفاء الوجه الحقيقي للعربي وانتهت بإخراجه من مسرح التاريخ ، وطرده إلى الصحارى أحياناً ، أو عبوديته في أراضيه أحياناً أخرى .

لكي نفهم هذا نرتد إلى الوراء بضعة قرون لنمسك بالخيط من أوله . ذلك أن العربي الأصيل - عربي الجزيرة - الذي يبهرنا بشخصيته وبسالته وملكته الشعرية في العصر الجاهلي ، ثم يبهرنا أكثر بما قام به من أعمال البطولة والذكاء والقدرة على القيام بالعجائب ، عندما دخل في الإسلام وحمل رابته ونشره « من غانة إلى فرغانة » ، كما يقول كتاب العرب ، أو من بلاد الموروس (الأندلس) إلى بلاد الموروس (جنوبي القليليين) - هذا العربي الذي ساد الشعوب الساكنة في تلك الأقطار الشاسعة ، بالإيمان والشجاعة وروح السيادة

في أكثر الأحيان ، وبالحرب في أقلها ، هذا العربي الذي بلغ من عمق الأثر الذي تركه في النفوس أن جعل معظم هذه الشعوب تنسى أصولها ولغاتها الأولى وأديانها الأولى وتحول إلى شعوب جديدة ممن يمكن أن نسميهم العرب الجدد Neo-Arabs: عرباً عراقيين وعرباً شاميين وعرباً مصريين وعرباً بربراً وعرباً أندلسيين ؛ بل في وقت ما في منتصف العصر العربي نشأ عرب إيرانيون وعرب ترك - ثم انتهى بأن جعل هؤلاء جميعاً عرباً فحسب : تمثلهم في كيانه الصغير بعملية ميثامور فوزيس فريدة في نوعها في التاريخ ، هؤلاء العرب وصلوا في أواخر العصر الأموي إلى حالة إعياء مفرط : استفدتهم الحروب وأكلتهم البلاد المتباعدة ، حتى أصبحت جزيرتهم قاعاً صفصفاً تقريباً ، كما يقول ابن خلدون . وعندما قامت الدولة العباسية (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م) على أيدي عرب خراسان - لا على يد الفرس كما يظن - كان هذا آخر جهد قام به ذلك العربي المجيد ، الذي شاد من صروح التاريخ ما لم يشده شعب آخر ، برغم أنه كان في هيئته إنساناً صغير الحجم معروق الوجه نحيل الساقين كأنهما عصوان ، ولكنه كان يضم في صدره - الذي كان قفصاً بلا لحم - قلب أسد لا يهاب الموت ، ويضم في رأسه الصغير - نسيباً - حكمة باهرة وذهناً صافياً كأنه سماء الصحراء ، استقر فيه الإسلام فيضاً من النور والفهم لا يفنى ، ويحارب السنين القاسية السعيدة في حياة الصحراء التي علمت الضب الحكمة وعلمت الجمل الصبر والحلم واحتمال المتاعب حتى كان يأكل الشوك ، وجعلت من الحصان صناعاً من صناع التاريخ .

قام العربي الأصيل بدوره العظيم وانفق معظم نفسه فيه ، وبقيت من العرب الخالص جماعات صغيرة في البلاد المفتوحة لم تلبث أن اندرجت في السكان ، وبقيت بقية أخرى انسحبت إلى الجزيرة العربية وعاشت متناثرة في أرجائها الواسعة ، وخرجت من ميدان التاريخ واندرجت تحت من نسميهم في تاريخ الإسلام بالبدو أو الأعراب ، وسيكون لبعضهم ظهور جديد على مسرح التاريخ ، كما نرى في هجرة بنى سليم وبنى هلال إلى مصر ثم إلى المغرب ، حيث قاموا بالتفريية المشهورة التي أكملت عروبة المغرب ، فأدت بذلك خدمة جليلة لم يدرك أهميتها ابن خلدون

ولهذا حمل عليهم .

وفيما عدا تغريبة بنى سلم وبنى هلال تلك - وقد بدأت من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى - لم نعد نسمع للعرب الخالص ذكراً حتى مطالع العصر الحديث .

ولكن العربى عندما انتهى دوره وانزوى ، خلف فى الميدان أبناءه العرب الجدد ، الذين استعربوا لغةً وحضارةً وأسلوبَ حياة ، حتى الذين لم يدخلوا فى الإسلام منهم وظلوا محافظين على أديان آبائهم ، استعربوا - كغيرهم - وانتسبوا إلى شجرة العروبة ، وساهموا فى بناء حضارتها بنصيب كبير .

ولكن هذه الشعوب العربية الجديدة - من العراق إلى ساحل المحيط الأطلسى وامتداداتها فى صقلية والأندلس والسودان الغربى والسودان النيلي - كانت فى حاجة إلى وقت طويل حتى تستم تحوها وتمثل الروح العربية السليمة وينصلح تكوينها . لأن التحول كان شاملاً وعميقاً يتناول الشخصية القومية كلها . فصر - مثلاً - بدأ الإسلام ينتشر فيها لأوائل الفتح ، ولكنها لم تصبح بلداً إسلامياً عربياً - أو مستعرباً - إلا فى أواخر العصر الفاطمى (أوائل القرن السادس الهجرى / منتصف الثالث عشر الميلادى)

خلال العصور التى استغرقها الدخول فى الإسلام والاستعراب ، خضع العرب لنظم سياسية غير سليمة أو غير شرعية ، فلا دولة بنى أمية ، ولا دولة بنى العباس ، ولا واحدة من الدول المحلية ، التى ظهرت ابتداءً من النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، وصلت إلى الحكم أو سارت فيه على الأسس الشرعية الذهبية التى قررها الإسلام ، وهى الشورى وإقامة العدل ورعاية مصالح الأمة والزيادة عن حياض الإسلام والعمل على نشره فيما يلى حدود دار الإسلام ، فهى دول كانت تصل إلى السلطان بالعنف وتحكم الناس بالقهر والقسر ، ولا تخدم إلا أفراد البيت المالك ومن التف حوله من أنصار .

ولكى يستطيع المستبد أن يصل إلى السيطرة الكاملة على الناس ، عن طريق العنف والإرهاب ، لجأ إلى استخدام الجند المرتزق ، الجند المأجور الذى يعمل

لحسابه ، فاشترى الرجال الأشداء من أجتاس عرفت بضخامة الأجسام والضراوة في الحروب ، من الترك والسودان والرقيق الأوروي المسمى بالصقالبة ، واشترى الأطفال الأجانب أو أخذهم بالقوة ورباهم تربية عسكرية ونشأهم على الإسلام ليكونوا جنداً له ؛ وبهذا أصبح السلطان وجنده في جانب والشعب المحكوم في الجانب الآخر . وحرص السلطان في كل بلد إسلامي على ألا يجند من أهل بلده ، خشية أن تدفع الجند العصبية القومية إلى العطف على مواطنيهم

وهكذا نشأت الشعوب العربية في ظل الإرهاب وعاشت فيه ، ونظرت إلى الحاكم - دائماً - على أنه عدو ، ونظر إليها الحاكم على أنها « رعية » أي قطع من الغنم ، ينبغي أن تعيش كما يعيش قطع الغنم ، وتتصرف على أنها غنم ، فإذا رفض واحد من الرعية أن يكون في جملة الماشية قضى عليه في الحال على أنه ثائر أو خارج على الطاعة أو متمرد . ولم ينج من هذا المصير الأسود إلا الشعوب التي عاشت في بلاد فقيرة لا مطمع في ثروة فيها مثل جزيرة العرب ، وتلك التي عاشت في مناطق جبلية يصعب على جند الحاكم السيطرة عليها ، وشعوب الأطراف التي كانت تستطيع الفرار إلى المجاهل عند اقتراب جند الدولة .

هذه الظروف السياسية خلقت أوضاعاً اجتماعية وخلقية سيئة نجدها في كل بلد إسلامي في العصر الوسيط ، مثل النفاق واحتمال الظلم في استكانة واستسلام ، والتهافت على الشيء القليل والتواكل والأنانية والكسل ، وخدمة الأقارب على حساب المال العام ، وعدم الشعور بالمجموع وما إلى ذلك . وكل هذه ليست صفات أساسية في الخلق العربي أو الإسلامي ، ولكنها وسائل لجأ إليها الإنسان العربي لينجو بنفسه من مظالم قوم من الطغاة الجبابرة ، ممن سيطروا على خيرات البلاد وتقاسموها بالقوة ولم يتركوا للناس منها إلا القنات ، فعم الفقر الناس ، ومن الفقر نشأت أخلاق الفقر التي ذكرنا بعضها ، وهي أسوأ من الفقر نفسه .

وحرص أولئك الطغاة على أن يحرموا المواطن العربي من شرف الخدمة العسكرية ، زاعمين أنهم هم - وحدهم - الذين خلقوا للحرب ، وهم - وحدهم - الحق في نيل شرفها ، أما العربي فقد زعموا أنه لا يصلح للحرب ، ناسين أن سيوف العرب هي التي

فتحت بلاد أجدادهم وأخضعها ، وأدخلتهم في ميدان الحضارة وفتحت لهم سبل التقدم .

وبلغ الأمر ذروته عندما قبض المماليك على أزمة الحكم في مصر والشام والعراق ونواح شتى من عالم الإسلام ، فقد استأثر أولئك المماليك بالحرب ، ووضعوا قوانين تحرم على العربي ممارستها ، بل كان المماليك في مصر والشام لا يسمحون للمواطن باقتناء سكين كبير أو هراوة غليظة ، بل بلغ من انحطاطهم الخلقى وأنانيتهم أن اشترطوا أن يكون السلطان أجنبياً عن مصر غير مولود فيها ، بل هناك أمراء ممالك لم يؤيدهم الأمراء في الوصول إلى السلطنة لأنهم ولدوا في مصر أو الشام . .

والقصة طويلة ، وتحليلها والكشف عن حقائقها ميسور ، ولكننا نختصر القصة الطويلة وننتهى إلى خاتمتها التي تقول إن المماليك عندما اصطدموا بالأتراك العثمانيين انكشف أمرهم عن عجز عن الحرب وجبن وخيانة وكل ما يشين شرف المحارب . وتحت سنابك الخيل في ميدان مرج دابق - شمالي حلب - مات آخر سلاطين المماليك قنصوة الغورى ، ذلك العجوز الظالم المغرور الذى تستطيع أن تقول إنه آخر رؤساء عصابة الطغاة التي حكمت قلب العالم الإسلامى ، على صورة هبطت بأغنى بلاد الله - إلى ذلك الحين - إلى درك أفقر بلاد الله ، وجعلت العربي - وهو من أعظم الفاتحين في التاريخ - غير جدير بحمل السلاح . .

ولكن البذرة الأصيلة كانت ترقد في أمان . .

تحت ركام الفقر والظلم والهوان التي فرضها المماليك ، رقدت جذور العربي الأصيل سليمة صافية يرونها أهل العلم والسير والتاريخ بماء الذكرى والأمل . وفي كيان العربي الذى خضع لحكم المملوك الصعلوك ، والعثماني الذى وهب الله صفات جميلة نادرة ولكنه حرمه من نعم السياسة وبعد النظر وفهم الشؤون الاقتصادية . . في كيان ذلك العربي ظلت كامنة ذكريات أجداده الميامين أبطال الفتوح الكبرى . ومع هذه الذكريات ، وبين شقى البذرة السليمة ، استكنت أيضاً صفات العربي الأصيل ، من بسالة وأريحية وأنفة وإيمان بالله ورسوله ، رمز خير ما وهب الله البشر من صفات وشائئ . ولقد أكثر الناس عندنا من الكتابة في السيرة النبوية

الشريفة والفتوح ابتداءً من القرن الخامس ، وهذه السير الكثيرة التي بقيت لنا من العصور المتأخرة إما هي الأوراق التي ظلت البذرة الكامنة ترسلها إلى النور لتحفظ بها كيانها .

وفي القرن الرابع الهجري قُتِنَ الناس بشعر أبي الطيب الحسين بن أحمد المتنبى لأنه كان زهرة رائعة أطلعتها البذرة العربية الكامنة ، فكان شذاها يحيي الألوفاً بعد الألوفاً من الأجيال التي ذكرنا أنها نشأت في ظلال اليأس والألم والحرمان . وعلى تلك الأوراق وتلك الزهرة وأمثالها ظلت بذرة العربي المقاتل الباسل الشهم الأبي حياً لم يمسه أذى ، في انتظار اللحظة التي يأذن الله - سبحانه وتعالى - لها فتخرق طباق الثرى وتخرج للناس شجرة وارفة الظلال . .

ولقد أتاحت لها هذه الفرصة في أثناء عصور الظلم أكثر من مرة ، ولكن الحكام الظالمين كانوا يسارعون إلى إطفاء الجذوة قبل أن تصبح لهباً . وإذا كنا نقول إن الذين طردوا الصليبيين كانوا رجال اليقظة الكبرى من أتابكة الموصل ، ثم عماد الدين زنكى وابنه المجيد نور الدين محمود وخليفته العبقري الفذ صلاح الدين يوسف بن شادى ، فاعلم أن أولئك جميعاً لم يقوموا في حرب الصليبيين إلا بالجزء القليل الظاهر الذى سجله لهم المؤرخون ، وهم من صنائع السلاطين . أما الذى يضعض قوى المستعمر الصليبي وأنهكه وأتى على خيرة رجاله ، فهو المجاهد العربى المجهول الذى قام بأكثر من النصف في التمهيد لنصر حطين ، وظل يلهب ظهور المماليك ويذكرهم بواجب الجهاد الأقدس ، فلم يجد بيبرس ومن بعده مناصباً من مواصلة الجهاد ليصبحوا أهلاً للحكم .

وعندما اجتاحت العالم العربى موجة المغول ، كان المجاهدون العرب هم الذين صمموا على خوض المعركة الكبرى عند عين جالوت ، في حين كان بكوات المماليك يفكرون في الانسحاب إلى مصر ، حتى خجل السلطان سيف الدين قطز ووبخ فرسان المماليك على جبنهم وقال كلمته المشهورة : « تأكلون خبز المسلمين ولا تذبون عن ديارهم ؟ ! » ورمى بقلنسوته إلى الأرض وقرر دخول المعركة إلى جانب المجاهدين ، فخجل المماليك ودخلوا المعركة بعد أن كان المجاهدون

المجهولون قد كسبوا نصفها . ولهذا لم يغفر المماليك لقطر هذا التصرف برغم انتصاره في المعركة ، وقرروا قتله قبل أن يدخل القاهرة ، فاغتالوه في بلبيس ، لأنه كان قد قرر الانتقام منهم والتخلص من شرهم إذا دخل مصر .

ثم دالت دولة المماليك ، ودخل الفرنسيون مصر في صيف ١٧٩٨ فقصوا على أسطورة المماليك في ساعات ، وتطارت بقاياهم هباءً تاركين المصريين في وجه العدو ، فقبل المصري التحدى متردداً أول الأمر ، ثم واثقاً من نفسه بعد ذلك .

وبينا كانت شراذم المماليك تحاول الاتفاق مع الفرنسيين على مقاسمتهم احتلال البلاد ، قام أهالي القاهرة بثورة أكتوبر ١٧٩٨ ، وساروا لحرب الفرنسيين بالهراوات والعصى ، فقتلوا حاكم القاهرة الفرنسي ، وأثبتوا أنهم أصحاب البلاد وأهلها الحقيقيون . ولقد استنكر عبد الرحمن الجبرقي ثورة أهل الحسينية على الفرنسيين ، لأن طول عشرته للمماليك جعلت جزءاً من نفسه مملوكياً ، أو قل إنه - برغم ذكائه كان يأخذ بأخلاق القفر الرذيلة التي ذكرناها ، ومنها الخوف والجبن والنفاق والتضحية بكل شيء في سبيل سلامة الجلد . ولكن ثورة القاهرة هدت الكيان الفرنسي في مصر ، فاتخذ رجال الاحتلال سياسة جديدة هي التقرب من المصريين وكسب ودّهم ، وبدءوا الحوار معهم في « الديوان » والنظم الحديثة الأخرى التي استحدثها الفرنسيون وتحدث عنها رفاة رافع الطهطاوى في « مباحج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية » فأحسن الحديث ، وكتابه هذا كله أمل وإشراق ، لأنه أحس أن البذرة قد أطلعت النبتة وأنها تشق طريقها إلى الهواء .

ومضت أيام الفرنسيين ، ولكن المصري رفض أن يعود إلى غياهب العصر التركي ، وما لبثنا إلا قليلاً حتى رفعنا بأيدينا إلى العرش رجلاً شق طريقه بملكته فأيدناه ، وبأيدينا قام بإنشاء دولة عربية حديثة فاقت في سنوات قليلة كل ما فعله غير العرب في سنوات كثيرة ؛ وشقت النبتة الأرض ، وظهرت شجرة العربي الأصيل مرة أخرى إلى النور .

وحاول محمد على الأرنؤوطى وريث مئات السنين من الحكم الأجنبي أن يستجلب الجند من السودان ليكون له - هو أيضاً - جيش مرتزق ، فلم يوفق .

ونصحه الكولونيل سيف مستشاره العسكري بأن يجند من المصريين قتردد ، ثم قبل وهو موثق بأن المصرى - أو « ابن العرب » ، كما كان يقول - لا يصلح للقتال . ولكن ابن العرب حطم الأسطورة وانتصر على التركى فى معارك كبرى - من نصبيين إلى كوتاهية - واحتل بروسة ووقف على أبواب الآستانة . ومن أغرب ما يحكيه مؤرخ فرنسى كتب كتاباً بديعاً عن « التاريخ الحربى لمحمد على وأولاده » أن محمد على كان يشعر بألم عندما تبلغه انتصارات المصريين على الترك ، مع أن المصريين كانوا يحاربون تحت رايته ! وعندما قص عليه ابنه إبراهيم أن المصريين الجرحى فى مستشفى أزمير غادروا أسرتهم وذهبوا ليشركوا مع زملائهم السائرين نحو بروسة أنكر الحكاية إنكاراً شديداً ، بل غضب على ابنه إبراهيم وشمته قائلاً : « لقد أصبحت ابن عرب ! » وحسب أن هذه إهانة لا تعدلها إهانة ، ولكن إبراهيم لم يتأثر ، فقد كان لطول عشرته لجنوده المصريين - أو الفلاحين - قد أصبح ابن عرب بالقلب والروح .

وهؤلاء الفلاحون - أو أبناء العرب - هم الذين أنشأوا إمبراطورية مصر فى الحجاز والسودان أيام محمد على ، وإمبراطورية حفيده إسماعيل التى شملت وادى النيل كله من أوغندا إلى البحر المتوسط ، وضمت الصومالات وقبضت بيد على باب المنذب وباليد الأخرى على باب الخليج العربى فى أقصى جزيرة العرب شرقاً . هنا ارتد العربى إلى معدنه الأصيل ، ونشرت شجرة العروبة فروعها وعادت تقاليد العسكرية العربية إلى الظهور فى ثوب حديث . ومن أوائل القرن الماضى قامت المدارس العسكرية المصرية ذات التقاليد الباهرة فأخرجت ضباطاً من الطراز الأول ، وفى أواخر أيام إسماعيل كان الجيش المصرى يقارب نصف مليون جندى ، وكان - بالفعل - من كبار جيوش العالم فى ذلك العصر . ولكن إسماعيل ابن إبراهيم لم يكن من نسيج أبيه ، بل كان من نسيج سلفه : عمه سعيد ، وهونسيج ضعيف غير أصيل لحمته تركية وسداته أوروبية ، فاستمع لنصحائه من رجال الاستعمار الأوروبى - وكان ذلك الاستعمار فى أوجه - وأخذ يستخدم فى القيادات أترাকা وشراكسة ونمساويين وإيطاليين وإنجليزاً ، وحرص على ألا يسند قيادة كبرى

لمصرى خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى زوال عرشه ، حتى إمبراطورية مصر فى إفريقيا عهد بها إلى ذئاب من أمثال صمويل بيكرور ودولف سلاتين واشفايفورث وتشارلس جوردون ، فلم يكن لهم دأب إلا قطع الطريق على المصرى وإيقافه عند رتبة الضابط الصغير مهما بلغت ملكاته .

ومثل هذه السياسة كان الأوربيون يتبعونها فى بقية بلاد العروبة التى أراد لها الحظ العاثر أن تقع تحت أيديهم ، لأن الأوروبى لم ينس أبداً أن العربى مقاتل عنيد إذا ملك أدوات القتال ، وكما كان المملوك يجرد المصرى حتى من السكين ، حرص الفرنسى فى الشمال الإفريقى على أن يجرد أهل المغرب من شبابهم المقاتل بنقلهم إلى معسكرات فرنسية لتدريبهم ، ثم إرسالهم إلى مستعمرات فرنسية بعيدة مثل الهند الصينية لمحاربة أهلها . ووقفت أوروبا كلها إلى جانب إنجلترا عندما تجردت للقضاء على ثورة أحمد عرابى ، ولم يهدأ لها بال حتى قضت على شوكة جيش مصر واحتلت البلاد ، وقامت بعد ذلك بالقضاء على الحركة المهديّة وهى توأم الثورة العربية . وتعاونت فرنسا وإسبانيا فى القضاء على حركة الأمير عبد الكريم الخطابى ، بعد أن قضى الفرنسيون وجنود الفرقة الأجنبية على حركة المجاهد العظيم عبد القادر الجزائرى ؛ وأعلنت إيطاليا حرباً شعواء على الحركة السنوسية .

وهكذا عادت أسطورة العربى غير المقاتل إلى الظهور ، واطمأن بال أوروبا ، واجتهد رجالها فى تضخيم هذه الأسطورة وترويجها ، بحيث استقر فى عقول الناس أن العربى هو بالفعل إنسان غير مقاتل وغير قادر على احتمال مضانك الحروب ، وأن كل همّه فى الحياة هو الاستمتاع والاسترسال فى الملاهى ، وأنه - لهذا - إنسان لا يجتنب بأسه ، وأن أرضه - نتيجة لذلك كله - ينبغى أن تكون من حق ناس آخرين أو شعوب أفضل - فى رأيهم - تستطيع الانتفاع بأراضى العرب ومركزها الجغرافى الممتاز وما تضمه هذه الأرض من خيرات .

تلك كانت الفكرة عن العرب حتى قبيل الحرب العالمية الأولى ، وهذا ما يفسر لنا لماذا طمع اليهود فى فلسطين ، ولماذا تمسكوا بها دون غيرها زاعمين أنها أرض الميعاد

بالنسبة لهم وأن ذلك منصوص عليه في التوراة ، ولا حقيقة لشيء من ذلك ، وإنما الحقيقة أنهم حسبوا أن أراضي العرب أراض بلا صاحب ، لأن أهلها غير مقاتلين وهم - بالتالي - غير قادرين على الدفاع عنها ، فهي - على هذا - لقمة سائغة . وهذا يفسر لنا - أيضاً - لماذا كان الإنجليز يعدون العرب بأن ينشئوا لهم مملكة عربية كبرى ، تشمل الحجاز والشام وبقية أراضي الوادي الخصيب ، في الوقت نفسه الذي أعطى فيه بلقور وعده المشهور لليهود في الثاني من نوفمبر ١٩١٧ .

لقد كانت مفاوضاتهم مع العرب هواً وتسليية ، ريثما يتمكنون من خداعهم وإقناعهم بالانقلاب على الأتراك ، ثم تكون أرض العرب بعد ذلك قسمة بين إنجلترا وفرنسا واليهود

وهذه الفكرة - فكرة أن العرب شعب غير مقاتل وغير مستعد للدفاع عن أراضيه - هي التي جعلت الإنجليز يستهينون بثورة ١٩١٩ في مصر ، وجعلت الفرنسيين لا ينظرون نظرة جدية لثورة سوريا عليهم ، ولم يقتنع هؤلاء وأولئك بأن العربي يضم في إهابه رجل حرب من الطراز الأول إلا بعد أن هزت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كيان الإمبراطورية البريطانية ، وبعد أن قامت تلك الثورة بتحدى الغرب وقوته الاستعمارية تحدياً لم يسبق له مثيل ، عندما أمت مصر قناة السويس وأسقطت بذلك هيبة الغرب ، وفتحت باب الاستقلال لشعوب إفريقيا وآسيا . هنا أحس الغرب أن العربي المقاتل قد عاد إلى الميدان ؛ وجدير بالذكر أن أوروبا لم تعرف طوال العصور الوسطى أعداء أخطر عليها من العرب والمسلمين ، حتى يمكننا أن نقول إن معظم تاريخ أوروبا خلال العصور الوسطى كان صراعاً مع العرب أولاً ثم الأتراك العثمانيين ثانياً ، وإلى نهاية القرن الماضي كان البحر المتوسط كله ميدان صراع بين أوروبا من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى .

وتأكدت هذه الحقيقة عندما سار العرب في طريق الوحدة وعقدوا العزم على استعادة كل حقوقهم من المستعمرين ، وقد تجلّى ذلك في ثورة الجزائر التي انتصر فيها شعب الجزائر الباسل ، بعد سبع سنوات من قتال مرير استشهد فيه نحو مليون شهيد جزائري ، ووقف العرب جميعاً إلى جانب الجزائريين يساعدهم

بأقصى ما استطاعوا .

كل هذا جعل الأوروبيين يعيدون النظر في موقفهم من العرب ، ولكن الوهم القديم - وهم العربي غير المقاتل - ظل يراود نفوسهم فاجتهدوا في تحطيم عزيمه العرب مستعملين في ذلك إسرائيل ، فأعطوها من السلاح ما لم يقدموه لأعز حلفائهم ، لا حباً في اليهود ولكن كراهة للعرب . وصالت إسرائيل وجالت ، وانتهزت فرصة خلو يد العرب من السلاح الحاسم وكسبت انتصارات ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، وظنت أن انتصارها سنة ١٩٦٧ نهاية الصراع بينها وبين العرب . وخلف خط بارليف وتحصينات الجولان - التي ظنوا أنها سور الصين - استناموا إلى النصر وأخذوا يرمون بالاشتراك مع حلفائهم - خريطة الشرق الأوسط ، على اعتبار أن هذه المنطقة أصبحت منطقة نفوذ إسرائيل وحلفائها ، وأن أحداً في المنطقة لن يرفع رأساً إلا بإذنها .

ثم جاء السادس من أكتوبر ، وإذا بالدنيا تنقلب رأساً على عقب . .
المصريون يعبرون قناة السويس في ساعات ، ويقاتلون كأبسل ما يقاتل الأبطال . .

والجندي المصري - الذي كانوا يحسبون أنه مجرد فلاح لا يفك الخط - يستخدم أعقد الأسلحة الحديثة بمهارة لم يصل إليها اليهود . .
وخط بارليف - الذي قالوا إن قوة ما على الأرض لا تستطيع أن تتخطاه - اقتحمه المصريون واستولوا عليه في بسالة وتضحية وإحكام ، أعادت إلى الأذهان ذكريات اقتحام خالد بن الوليد « لحديقة الموت » المعقل الأخير لمسيمة الكذاب أيام البطولات العربية الأولى . .

وتحصينات الجولان تهاوى أمام فيالق الجيش السوري الباسل . .

وتصدعت أركان إسرائيل . .

واهتركيان أوروبا كلها . .

لقد عاد العربي المقاتل الباسل إلى الميدان ، وبدأ يسترد حقوقه الضائعة . .
واتحدت صفوف العرب وقلوبهم ، ووقفوا صفاً واحداً ، واستخدموا سلاح

البتول بمهارة أوقعت الغرب كله في ذهول . .
 في كلمات قلائل : لقد تغير الوضع السياسي في العالم كله ، عندما عاد
 العربي المنتصر إلى الميدان يوم ٦ أكتوبر وانتزع راية النصر وسار في الطريق . .
 وأخذت أمواج اليأس تتلاشى من قلوب العرب ، وأشرق عليهم عصر جديد .
 عصر العربي الأصيل المقاتل الباسل صانع التاريخ . .
 وفي كل ناحية من نواحي بلاد العرب سرت موجة النهوض ، وفتح العرب عيونهم
 على حقائق حاضرمهم ومستقبلهم ، ووضعوا أيديهم على أسرار التكنولوجيا . وعقدوا
 العزم على أن يستخلصوا آخر شبر من أراضيهم بقوة السلاح . .
 تلك هي عبرة حرب أكتوبر ١٩٧٣ / رمضان ١٣٩٣ . .
 إنها ليست مجرد نصر ، إنها ميلاد عصر جديد . .
 عصر يعود فيه العرب إلى مكانهم في صدارة الأمم ، وهو بالنسبة لأوروبا
 أمر بالغ الخطورة ، وبالنسبة لإسرائيل والصهيونية نهاية الحلم الكاذب ، وبالنسبة
 لروسيا تغير شامل في ميزان القوى ، وبالنسبة لأمريكا حكم بضرورة إعادة النظر
 في كل السياسة الأمريكية بالنسبة للشرق الأوسط ، على أساس أن هذه المنطقة
 منطقة العرب ، لا سيد غيرهم فيها ، ولا تنتقل فيها قدم عن قدم إلا بما يرون . .
 لقد عاد العربي إلى مكانه الجدير به في التاريخ ، وبدأت بعودته صفحة جديدة
 جداً في تاريخ العالم كله . .